قراءات في سطور المدينة المغربية
بقلم محمد العربي المساري

مع الجزائري علي الحمامي في روايته " إدريس ":بحث في الجذور البربر أسلموا حينما تبربر الفاتحون ونشأ كيان جديد هو المغرب (*)

صدرت في تونس الترجمة العربية لرواية " إدريس" التي كتبها على الحمامي، أحد الشهداء الثلاثة الذين لقوا حتفهم في حادث الطائرة إلى كراتشي حيث كانوا سيمثلون بلدان شمال إفريقيا في أول مؤتمر اقتصادي للعالم الإسلامي، وذلك في ديسمبر 1949، إلى جانب كل من محمد بنعبود من المغرب، والحبيب ثامر من تونس، بينما كان الحمامي يمثل الجزائر. والرواية التي وضع صاحبها تحت عنوانها الرئيسي عبارة "رواية من شمال إفريقيا"، مكتوبة في الأصل بالفرنسية في بداية الأربعينيات. ويدقق المؤلف أن إتمامها كان في بغداد في 1941. وهي مزيج من أطروحة سياسية ودرس في التاريخ. فبطلها مناضل من أجل تحرير بلده، يمكن أن نتكهن بأنه من منطقة الشمال بالمغرب الأقصى، لا يرى أفقا لنضاله إلا بلاده الواسعة، التي تشمل المغرب والجزائر وتونس. وكلما وقف " إدريس " على مكان، يتذكر ما جرى فيه من أحداث تضرب في عمق التاريخ، ولا يستطيع إدريس أن يغفل في أي لحظة أنه سليل أجيال أثمرتها تلك الأمكنة، وقامت عبر القرون بصنع تاريخ شمال إفريقيا. وهو يهدي روايته إلى محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي كتب مقدمة في الطبعة الأولى مثل ما فعل شيخ الرواية المصرية محمود تيمور.

وما أقل من قرأوا هذه الرواية، من أبناء الأجيال الحاضرة، حتى في أصلها الفرنسي، فهي في حكم الكتب المفقودة، ولهذا فإن الترجمة التي أنجزها الدكتور محمد الناصر النفزاوي من تونس، ستعيد الحياة إلى هذا الأثر الأدبي الفريد من نوعه، وستزيد من سعة انتشاره، وهو يرى النور بالعربية، حيث عدد القراء المهتمين أكبر وأحوج لهذا النوع من الزاد.

وعلاوة على المتعة الفكرية التي تنشأ لدى القارئ فإنه يجد نفسه أمام نص أدبي له بعدان سياسي وتاريخي، وسأتولى الإشارة بكيفية خاطفة إلى الجانب التاريخي، بدافع المواءمة.

وقد وطأ النفزاوي للرواية بمقدمة كفيلة بأن توضح للجيل الجديد من المغاربيين كيف أن أحد أسلافهم قد شق الطريق منذ ثمانين سنة ونيف، لوضع الأمور في نصابها، من حيث موقعة ما هو مغاربي في مكانه من خريطة العالم. وهو مسعى يتطلب التحيين بكيفية مستمرة على ضوء المتغيرات وفي سياق المعنى الجوهري للأمور وهو ما لا فكاك منه مهما كانت المتغيرات جارفة.

فكيف يقدم النفزاوي رواية " إدريس "؟ إنه يذكر بداية بالتيارات الكبرى التي تتقاذف عالم اليوم من الإقليمية إلى العالمية، وينبه إلى أن الحمامي (ويشير إلى أن النسبة هي إلى عين الحمام، بتشديد الميم الأولى، وهو موقع في قلب جرجرة بتزي أوزو) قد طرح دعوته إلى القومية " المغاربية " في سياق التطورات التي نتجت عن الحرب العظمى الأولي، التي كان من نتائجها سقوط الخلافة العثمانية، وانكشاف أن الأمة الإسلامية تتكون من أقوام أربعة: العرب والترك والفرس والمغاربة فظهرت في إيران القومية الإيرانية على يدي رضا شاه بهلوي ثم روح الله الخميني. وظهرت في تركيا القومية التركية بزعامة مصطفى كمال. وبعد قيام هاتين الدولتين القوميتين جاءت دعوة ساطع الحصري إلى قيام دولة قومية عربية تكون عاصمتها مصر ويكون جناحاها الشرق الأدنى في المشرق وبلاد المغرب في إفريقيا الشمالية، في مقابل دعوة أنطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري إلى كيان عربي يكون

الشام محوره، وهو ما حفز الحمامي على رفض إلحاق بلاد المغرب ببلاد المشرق وإبراز كيانها القائم منذ القرن التاسع الميلادي.

ويضيف النفزاوي في سياق إيضاح دعوة الحمامي أن البربر إنما أسلموا حينما تبربر الفاتحون، واندمجوا في البربر ضمن مصير واحد و أصبح الجميع بمقتضاه مغاربة. فمثلما تخلى الفاتحون عن جزء من خصوصيات الجنس العربي، تخلى البربر كذلك عن جزء من خصوصياتهم العرقية، فأصبح بالإمكان قبر عبارة بلاد البربر لتحل محلها عبارة بلاد المغرب.

واستنبط النفزاوي أن اللحمة الفكرية التي أقام عليها الحمامي مشروعه تقوم على ثالوث تجلت فيه العبقرية المغربية، وهو يتمثل في ابن تومرت ، و ابن رشد وابن خلدون، " الثالوث الأروع الذي سيرى فيه إدريس (بطل الرواية) مركز تاريخ وحضارة بلده ورمزها ". ونقرأ في الرواية أن إدريس " كان يأسف أن يكون أمثال هؤلاء الصقور قد حلقوا فوق الأطلس من دون أن يسقطوا أي بذرة ". ويرى إدريس في الإمبراطورية الموحدية أنها تشير إلى أوج المغرب ومثالا للقومية المغربية وأساسها الوحدة العقدية.

وحينما يعود إدريس بفكره إلى الفترة التي يعيش فيها يرى أن الشعب (المغربي) وقد تعرض للفتح ووقع تحت تأثير الاستعمار مهدد بالموت، إن أعوزته الثقافة الاجتماعية. وقد يطول استعباده إن بقي على هذا الجهل ، لذا عليه أن يرد الفعل (..) ولكن بأية وسائل: بالكفاح المسلح أم بتربية الشعب، بالمنصور أم بابن خلدون؟ « وهو هنا إنما يوصي بأن طريق التحرير أمام إدريس هو القوة والعقل.

وحينما يتأمل بطل الرواية الأوضاع الراهنة في بلده الشاسع (شمال إفريقيا) يجد أن روح الشرق قد تغيّر وأنه من الآن فصاعدا على كل بلد، وهو يعود إلى القوانين الخالدة التي أملتها على الدوام الأرض والدم وإلى دروس تاريخه، أن يحرص على خلاصه الخاص. فلقد كانت الفكرة القومية تشق خطاها تحت الفكرة الدينية ". ص 147

ويضيف في ص 22 " إن عائلة إدريس تنحدر منذ آلاف السنين من هذه الجماعات البربرية الأولى التي لا يعرف أحد الآن لا من أين أتت ولا كيف جاءت لتستقر في هذه الزاوية من المغرب. فمنذ عصور سحيقة سابقة على الفتح الإسلامي ظل الجبل باستثناء بعض الأماكن الساحلية مغلقا إغلاقا تاما في وجه كل دخيل أجنبي ".

يفصل الحمامي الحديث عن السمة الأولى لأرض المغرب وهي النفسية الوطنية التي تتمثل في رفض البربري لكل دخيل عليه لا يتبربر (الرومان قبل الإسلام) أو يتمغرب (الفرنسيون بعد الإسلام). هكذا كان شأن الفينيقيين " أبناء عمومتنا " (ص 23) وعرب الإسلام الأول. " على العكس من ذلك كان موقف البربر من اللاتينيين والوندال والإغريق حيث كان " الرومان والجرمان والإغريق في عيون البربر سواء"(ص 31).

وتعرض الحمامي لمقولة الإسلام المغربي كما يطرحه الغربيون والشرقيون فيرفضهما معا، إذ " الإسلام المغربي" عنده، هو هذا الإسلام الذي ولد نتيجة الاندماج في ميدان القتال ضد أوروبا ، بين القلة من العرب والكثرة من البربر. أي هذا الإسلام الذي ولد في الفترة التي ولد فيها " الشعب المغربي الجديد". فـ"الشعب المغربي الجديد " ليس هو تماما الشعب العربي وليس هو تماما الشعب البربري، ولذلك فإن الرابطة السياسية بين الدول المغربية (الأغالبة في تونس ودولة بني رستم في الجزائر ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى) ومختلف الخلافات في المشرق ستتراخى شيئا فشيئا (إن لم نقل ستنقطع) منذ القرن التاسع الميلادي أي منذ ولادة " الشعب المغربي الجديد" كما أن حضارة جديدة إسلامية مغربية، هذه المرة، ستنشأ في صلب هذا الشعب الجديد هي الحضارة الموحّدية.

والحمامي يذهب هذا المذهب في دعوته إلى القومية المغربية مؤمنا بان الوطني يعلو على الديني. ذلك أن الوطني خاص يختص بأمة معينة والديني لا يمكنه ذلك بسبب تعدد الأمم في دين من الأديان ومن ثم تعدد المصالح وتضاربها. وفعلا فقد قسّم لحمامي البربر القدماء إلى قسمين :

قسم إدماجي مارق لا وطني ضم رجال سياسة ودين على حد سواء ومن أشهر نماذج هذا القسم الإدماجي البربري يوبا الثاني ورجل الدين أوغسطين. وقسم وطني محارب للإدماج ضم كذلك رجال سياسة ودين على حد سواء ومن أشهر نماذج هذا القسم اللاإدماجي يوغرطة ورجل الدين دونات.

ويتطابق هذا إلى حد بعيد مع ما كتبه علال الفاسي في نفس الفترة، وخاصة في كتابه " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي " المطبوع سنة 1948 بالقاهرة، وخاصة في التوطئة التاريخية التي يبسط فيها الأرضية النظرية التي ينطلق منها كفاح الأحزاب الوطنية في شمال إفريقيا. وهو يقول قبل ذلك في المقدمة: " لقد شهدت هذه البلدان هجوما أجنبيا واحدا وهجرة مشتركة من المشرق أحيانا ومن الغرب أخرى. ولكنها استطاعت في كل أوقاتها أن تحتفظ بمشخصاتها الإقليمية، وتدمج في عائلتها الفاتحين والمهاجرين حتى تغمرهم ذهنيتها وأخلاقها وعاداتها . وبذلك حفظت تبلورها القومي وكيانها المسدود في وجه كل غاصب مهما كانت قوته عظيمة واستعداداته جسيمة ".

ويتعرض علال في التوطئة النظرية التي أومأنا إليها فيتوقف عند مغزى قيام قرطاجة واستمرارها، ويؤكد قبول الفينيقيين ثم العرب كعلامة على الأرومة المشرقية. وذلك على عكس ما حصل لأهل البلاد مع الرومان. ومثل الحمامي يبرز علال الفاسي أن وجود الرومانيين إنما قام على الهدم. ويذكر أن " المغاربة تمسحوا أو تهودوا يوم كانت روما كافرة، ودخلوا الأريانية يوم تمسحت روما، وشايعوا دونا الأسقف القرطاجني المغربي في نحلته التي انشق بها عن البابوية الرومانية وكون بها الكنيسة المغربية، ولكنهم رفضوا القديس أوغوسطان الذي أخلص للبابا وقدس روما فقاومه إخوانه ورأوا فيه خائنا لوطنه يريد تعبيد مواطنيه لروحانية الدولة المستعمرة. "

وبعد أن يذكر بأن المغاربة حتى حينما ارتضوا الإسلام دينا، حرصوا على الاعتداد بوجودهم الخاص، ذكر في هذا السياق أن " القومية المغربية موجودة منذ القدم، فيما قبل الإسلام وبعده، مبثوثة في كل الآثار التي سلمت من عوادي الدهر، وإنك لتجد في كتب ابن جبير وابن خلدون وفي شعر ابن هانئ متنبي المغرب، وغيرهم، من الأدلة الواضحة على تمسك المغربي بوطنه، وحبه لبلاده، وتفضيله لها حتى على الأوطان الشقيقة، ما لا تجده في آثار أدباء الأمم المعاصرة لهم ".
وبالعودة إلى الحمامي أسجل أن حماسه للغوص في الحاضر وربطه بالماضي، يتم على نحو يفيد أن الماضي عنده ليس ذكرى، بل حقيقة حية مستمرة في التبلور. إن شريط حياة " إدريس " مسيرة فيها نتوءات وأخاديد تشعرنا بأن السير لم يكن سهلا. ويستطرد البطل أحيانا ليخترق الماضي ويتأمل بدون قيد بعض المواقف والمظاهر والمفاهيم التي يحفل بها تاريخ الإسلام، بما في ذلك بعض الطقوس الوثنية التي لا يقبلها عقله.

وقد تجددت عندي لدى قراءة " إدريس" هذا النص الأخاذ، خواطر ومشاعر يوحي بها دائما ذلك الامتداد في الزمن للذهنية المغربية المتميزة. فنحن المغاربة لا شك جزء من العالم العربي. واختيارنا للانتماء العربي ثقافيا هو اختيار واع نابع من إدراكنا للمصلحة والتناغم مع ذهنيتنا. وقد كان تعريب المنطقة على يد أسر حاكمة أمازيغية، ولكن دائما وفق أسلوب خاص يتوافق مع ذهنيتنا وأساسه عدم التبعية. وقد استعمل الدكتور النفزاوي عبارة مبتكرة، فقال إن العروبة التي اخترناها " مكررة ". وهي عروبة ثقافية وليس عرقية ولا سياسية. واقتبس مفردة " التكرير " هذه من مجال الكيمياء، بمعنى أن

مفهومنا للعروبة مكرر أي مصفى غير مشوب العصبية، وهو بالتالي اختيار عقلاني في ظله نحق ذاتنا المتميزة.

فأنا لا أجد ضيرا في أن اقول إني مغاربي لأنني إبن هذه الأرض، المتميزة في طقسها وتضاريسها وذهنيتها. وأنا عربي دون أن تكون الناصرية أو البعثية هي مرجعيتي. ومسلم دون أن تكون الوهابية أو الإخوانية هي بوصلتي. وأنا حداثي دون أن يعني ذلك الذوبان في "العولمة الجاهزة للاستعمال" . أي البريط آ بورطي.

وأنا عربي لأنني نافر من طغيان الهيمنة الفرنكوفونية. ولكنني أقبل عن طيب خاطر أن يكون في مكتبتي كاتب ياسين والطاهر بن جلون، لأنهما تعبيران مغربيان مثل غيرهما من الكاتبين بالعربية أو الأمازيغية أو بالإسبانية. وأغضب حين أسمع نداءا إلى حرق المصاحف، وأشمئز من نداءات جهول يدعو إلى " استرداد " الأندلس.

وأنا مغربي من المغرب الأقصى لأني حامل لإرث أجداد أبدعوا في الفكر والمعمار والإبداع الفني بمختلف صوره، يعبرون عن ذلك بلكنتهم وبمضمون نابع من طريقة تفكيرهم وفهمهم للأشياء والماجريات. أنا مثل أمي، ومثل شاعر الملحون، لا أتحرج لدى التعبير عما يخالجني، فأستعمل جملا مبناها فيه حضور واضح لطريقة تفكير متوارثة لا يمكن التحرر منها. فأنا أتحدث لغة عربية مكتسبة مرت عبر مصفاة العقل أي التحكم المسبق في أسلوب السبك والتعبير.

وأنا في تتبعي لما يعتمل في العالم أفهم لماذا فعل مصطفى كمال بتركيا ما فعل. وأفهم لماذا يفعل أوردوغان ما يفعله اليوم وهو يسعى إلى إلحاق بلاده بالعصر لا بلبس البرنيطة، بل إلحاق تركيا بأوربا وهي حاملة عفشها في حين أن ساركوزي وميركيل يريدان منه أن يترك العفش في الباب إذا أراد أن يدخل البيت الأوربي. وأفهم من جهة أخرى كيف يغار الأوربيون على مكتسباتهم، لأن ما تمثله أوربا اليوم ومنذ قرون، هو ليس من صنع الصدف. وما هو نتاج القرون ليس سهلا طمسه لأنه نتاج أقانيم ساعدت في صياغته، وجعلت أوربا هي أوربا. كما لا يمكن تجاهل أن الشرق شرق والغرب غرب ولكن ليس حتما ألا يلتقيا بل من الممكن أن يتعايشا في احترام.

وما أنا بصدده ليس توفيقا من أجل المجاراة والمداهنة، ولا تلفيقا بين المتضادات، لمغالبة الكيمياء التي تصنع قانون الأشياء، ولكن كل هذا هو عندي نحو واضح قوامه السعي لتحسين الواقع، مع الطاعة الضرورية لقوانين الواقعية. وهذا وذلك هو المنطق الذي يحرك التاريخ. وفي النهاية فأنا مغربي لأني منتوج مركب ليس سهلا تقديمه بأربع كلمات مسطحة.

(*) مقال" سينشر قريبا في مجلة للتاريخ يرعاها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية"(م.ع.المساري)